جنة عدم

أحمد عبد الحسين

جنة عدم

شعر

أحمد عبد الحسين

دار الساقي
لندن . بيروت
٢٠٠٧

الاسـم

ما اسمُكَ ؟

أنينُ أبٍ تتعرّقُ أصنامُه تحتَ ابطيهِ، أمْ تحديقةُ صقرٍ يزيحُ عن العالمِ رغوةَ الظهيرةِ،

أمْ الأمهاتُ في صحنِ البيتِ يضمّدنَ جرحَ البيتِ ويسندنَ نخلةً تتهاوى، أمْ أنا، وأنا أصعدُ السلّمَ، أعمى تقتادُه بسالتُه الى فخاخهِ الأربعةِ :

الألف

الحاء

الميم

الدال

على السطحِ كان الهواءُ يلعبُ بحبلِ الغسيلِ ورملِ البروجِ،
كانتْ القمصانُ ترفرفُ يائسةً، واسمي الطفلُ خفيفاً يكادُ يطير .

كانَ لي اسمٌ

وحدثَ أني نزلتُ السلّمَ مسرعاً وكلّي عيونٌ تبكي، بعدَ فواتِ الأوانِ، أباً يقاسمني الفجرَ وهسهسةَ النارِ، وسمعتُ مَنْ يهمسُ ورائي :

إنا أنزلناهُ لنريَهُ الألمَ وصريرَ الأسنانِ،

إنا أنزلناهُ وسقيناهُ بالإسفنجةِ خلّاً،

إنا أنزلناهُ لنحرقَ إكليلَ الشوكِ على رأسهِ،

إنا أنزلناهُ ....

وكانتْ الهاءُ في (إنا أنزلناهُ) إشارةً إلى هويةِ الغيبِ المُطْلقِ : (هو).

(هو) الموؤدةُ ملامحُه فيَّ،

القارعُ طبولَه الخفيةَ في أذنِ طفولتي العمياءِ .

أينَهُ؟

أينَ أسماؤهُ وصفاتُه تتحايلُ على أسمائي وصفاتي

لتستدرجني الى الصحراءِ؟

فيا هو، أيةُ متاهةٍ استدرجتْك وكم من المرايا ردّدتْكَ حتى عدتَ اليَّ مثقلاً بالأنفاسِ، كأنما أنا ما يذكرني بكَ أيها النابضُ في ملابساتِ اليقينِ كالقلبِ، كأنما أنا ما يسترُ حنينَكَ إليَّ، أنا ما يضعُ بيني وبينكَ هذه الغلالةَ المزركشةَ بنداءاتِ الاستغاثةِ :

ألف : نداءُ ملائكةٍ خرساءَ توقظُ الجهات

حاء : نداءُ وعلٍ جريحٍ على فمِ الينبوع

ميم : نداءُ قاربٍ يتشظى في قهقهةِ البحر

دال : نداءُ عقيقٍ مرفوعٍ ليُختَبرَ في عينِ الشمس .

اسمي ندائي على نفسي كأني أنادي بائعَ الصحفِ الأصمَّ،

نداءٌ لا يصلُ إذ يصلُ إلا سدى

كنداء ميديا في مطارٍ ممطرٍ تدفعُ حقيبتَها وتضحكُ،

كنداءِ كوثرَ في مقامِ التمكينِ تسألُ عن وحدةِ الوجودِ وانقطاعِ الكهرباء .

هذه النداءاتُ الخفيضةُ ذكرتْني بأبي،

كان يقولُ :

الاسمُ بيتٌ لا يمكن الدخولُ إليه لا من أعلى ولا من أسفل، لا من الأمسِ ولا من اليومِ، لكننا مع ذلك نتلاطمُ فيه كما لو انه وكرُنا المكينُ، منبتُنا الذي لفرطِ اندكاكِنا فيهِ، ننساهُ، أو لعلّه الفجاءةُ التي قبلَ أن نفهرسَها تكونُ قد باشرتْ حفرَها في هوائنا القريب .

وتذكرتُ أيضاً :

كلُّ الأسماءِ، ومثلُها اسمي، رسائلُ أُحرقتْ قبلَ أن تُكتب .

كلُّ الأسماءِ إشاراتٌ إلى هويّةِ الغيبِ المطلقِ: (هو).

هـو: الرحمُ البارئُ الكاذبُ السـامُّ الذي بانقباضهِ وانبساطهِ أكون .

هـو : جمهرةُ فراغٍ تسدُّ عليَّ الطريق .

هـو : قنطرةٌ مردومةٌ بين الإنسانِ ونفسِه .

وأنا، كانَ لي اسمٌ

وحَدَثَ في أخرياتِ أيامي أني رأيتُ في المنامِ أني أذبحُ أبي،
فاستفقتُ وفي يديْ مقبضُ سيفٍ
وعلى رأسي طائرٌ بلا اسمٍ يزعقُ :

يا هو، يا هو، كم من هواءٍ تكاثرتْ عليه الأجنحةُ ولا يطيرُ إلا بكَ .

ومن يومها لم يعدْ لي اسم .

. ما اسمُكَ ؟

. نارٌ تريدُ أن تنطفئَ ولا تستطيع.

زهرةٌ سوداء

وبُعدُ ..

ماذا سيقالُ في الروح أبلغَ مما قاله سكران: (الروح خنثى)،
لكنّي تهيأَ لي، في جلسةِ خمرٍ، أن الخطأَ الحيَّ الذي يخالطُ وجودي له نحوُ ارتباطٍ بالنسيانِ، نسيانِ ذلك المغزى الشاقِّ، ذلك المعنى المبدَّدِ في دعابةِ فيثاغورس: (العالمُ عددٌ ونغمٌ).

وتذكرتُ أن في قوّة المصطلح تأجيلاً أبدياً للمعنى، بمقدارِ ما في كلمةِ الفجرِ من ليلٍ ونهارٍ، فصرتُ أطلبُ الروحَ بنقيضِها، والجسدَ بلطائفهِ المخبوءةِ فيهِ، وقلتُ: فلينمْ من لمْ يرَ زجاجَ الزجاجةِ، أما أنا فقدْ رأيتُ الروحَ . القنديلَ الذي من رآه لم ينمْ.

وقلتُ: يا ربُّ ليكنْ لي أربابٌ على قدرِ خطاياي، وأصدقاءٌ يترامزون بالكنايةِ، بالاستعاراتِ الشاقّةِ التي كنا نتلاسنُ بها في جلسةِ خمرٍ، نحنُ الأنبياءَ الكذبةَ الذين تكلّمنا عن الروحِ فأفْسَدْنا قدّاسَ

الأرضِ، سحقنا الكرمةَ الوحيدةَ التي تعبتْ قلوبُ الماءِ في ريّها .

لكنْ الروحُ روحُ مَنْ؟

الشابُّ الهزيلُ الذي لطمَ وجهَ حبيبته بزهرةٍ سوداءَ، وحده يدركُ أن مأتمَه لن ينقضي ما داما، هو وإياها، اثنينِ، روحينِ، ضربَتَيْ مجذافٍ في نهرينِ لا يلتقيان .

وهكذا فالزهرةُ السوداءُ التي سقطتْ في الوحلِ وداستْها الأقدامُ
صارتْ علامةً على انهدام الروحِ .

روحُ مَنْ؟

أكرّرُ سؤالي وفي خاطري أسماءُ كلِّ أولئكَ الذين انتهوا إلى هذا الحطامِ الشفيف، الذين تكسرتْ مراياهم وهم يتتبّعونَ المسارَ اللعوبَ لهذه الأمييبا المقدّسةِ، وإلا كيف يُعقلُ أن شخصاً ما، في جلسةِ خمرٍ، تذكّر فجأة أنه هو وروحه شيئانِ متناقضان، وأنهما معاً فائضانِ عن حاجةِ العالم؟

لعلّه ارتبك ليلَتها،
ضحكَ من الرعبِ أو أخفى خوفَهُ بالتدخينِ،

غير انه حينَ عادَ إلى البيتِ، وقبل أنْ ينامَ، كتبَ في مفكرته: (الروح خنثى)،
وعندما استيقظَ لم يعرفْ بالضبطِ ماذا أراد.

زواجٌ متأخر

المرأةُ تنهمكُ بالدموعِ والموسيقى، بترابٍ تكدّسُه آخرَ الظهيرةِ ثم تدفنُ فيه بذرتي وتنتظرُ،

وأنا من ورائها أعضدُها بالرعبِ، بالأحاجي ورائحةِ الكحول .

أضربُ روحَ الخشبِ الساهرِ معي، وأنفخُ كومةَ الترابِ :

أنتِ أيتها المعافاةُ،
وجدانُك يتقلّبُ بين موسيقى ودموعٍ،
وقريباً ستأتينَ لي بعظاءةِ الذهبِ وتقولين: لكمْ تشبهك هذه البنتُ .

سأسميها ميديا وتسمينها وجدان،
وستحتفلين بدمعٍ وموسيقى، وأنا من ورائك أسندُك بالرعبِ، بترابٍ جديدٍ وبذرة جديدة،
طارقاً بمفاتيحي روحَ الخشبِ النائمِ، مخبّئاً عنك الأحاجي ورائحةَ الكحول .

أرَق

العالمُ، على ما أرى و أسمعُ، لهاثُ طينتينِ ترتعدانِ في سريرٍ، إنما هو أيضاً طفلةٌ تتعرّى لتثبتَ فسادَ الهندسةِ، وقد يقالُ أنه نبيذٌ قديمٌ في جرارٍ قديمةٍ يحرسُه جنودٌ قدماء،
غير إني في هذا العالمِ، على ما أرى و أسمعُ، بذرةٌ تتثاءب في أرضٍ حرامٍ، عينٌ من الأنقاض تتنفّسُ السماءَ الخفيضةَ،

وإلا لمَ أعجنُ ترابَ أسمائي بماءِ أعدائي كأني أهدهدُ طينةَ النائمينَ،
وكيف من هذه الوردةِ الثقيلةِ التي تزلزلُ الضحى أشمُّ رائحة ذئابٍ تتلمظ من الأرق؟

لكني إذا كنتُ للملاكِ النائمِ في صدري قلتُ: لا تنمْ كملاكٍ،
فماذا سأقول إذاً للمنجّم يقودني من لساني؟

أأقول: أنا في عين ذئبٍ صدئةٍ هي الأرقُ، بل هي الأرقُ يتهجّاني ويصل إليَّ،
أمْ أقولُ: أنا تحتَ شمسٍ داكنةٍ أستجدي راحةَ يدٍ لأستجدي بها راحةَ يدي كمنْ يطارد غراباً نائماً في أحلامه ويصحو،

وإذا كنتُ للأرض التي تتحطّم قلتُ: لا تتحطمي كأرضٍ،

فماذا سأقولُ للسماواتِ التي تتثاءبُ في كتاب؟

مشافهة

أنتِ جيشٌ أبيضُ يستولي على الهضابِ

بيتٌ تتدلّى فيه مزاميرُ صيفٍ قادمٍ

وفي حفيفِ بنطاللكِ أرواحُ طواويسَ مجنونةٍ

تتكاثرُ بلا سبب .

أنتِ وقد أصبحتِ فمَ الكاتدرائيةِ

أداروكِ في خوابي النبيذ نبيذاً

وكلٌّ من تماسكَ وشربَ

أراقَ على كبدهِ الليلَ والنهارَ

و تنبأَ بكِ :

فراشةٌ في ناقوسٍ

ستجفلُ عمّا قريبٍ

ويجفلُ معها في قلبي

. طفلٌ محموم .

محمومٌ ونقيٌّ

كمثل طفلٍ أبكمَ ينزفُ في كلامِ السريرِ

كمثلِ طاحونةٍ تسهرُ بعنفٍ على عاشقينِ :

هو :

أختٌ تتزركشُ برائحةِ مسيحٍ

يتفتّتُ على دمشقَ .

هي :

أخٌ يتعرّى تحتَ الضوءِ،

ينفخُ فكرةَ الشمعةِ ويستبقينا في الأنقاض .

محمومٌ نقيٌّ، لكنْ

هذا الذي ينعسُ الآن في سريري

هل يعودُ بعد قرونٍ ليرى وجهَه القديمَ

متغضناً من الألمِ
متغضناً من الحمّى
من كماناتٍ انتحبتْ طويلاً في العشبِ الضالِّ
من صِبيةٍ بطائراتٍ ورقيةٍ اشتعلوا في الحارات؟

محمومٌ نقيٌّ

لكنْ بين عينيه تمثالٌ تكادُ الشمسُ تستنطقه :

من يسلّي فمَك إذا سكرتَ؟
ومن إذا نكبةُ الياسمينِ أطبقتْ شفتيهاعلى عينيكَ
سيحفر لك الهواءَ لتنامَ ؟

نمْ، حالماً بوجهك النقيِّ

متغضناً من الحمّى

من شهوةٍ فقدتْ عقلَها

واستقرّتْ عليك .

شهوةٌ بلا عقلٍ

غيمةٌ بلا عقلٍ انفرطتْ على حديقتينِ تلتهبانِ

مصباحٌ بلا عقلٍ رأى معجزتَه في خشبِ السريرِ

واللهاثُ بلا عقلٍ، بريدٌ منّي إلىَّ

أنا

والفجرُ

والألمُ المعطَّرُ في ركبتيك

جيشٌ أبيضُ ينتحبُ على رايةٍ بيضاء .

جَدَل

سحقوا العناقيدَ

سكرتْ أُقدامُهم

تاهوا

وظلَّ ركامُهم الممسوسُ

ظلّتْ عينُهم الكبيرةُ تحرسُ المداخلَ،

ظلّتْ إلى الآنَ صخرةٌ يخفقُ الرعبُ فيها
في جرحِها المعكوسِ،
عذراءَ تتلفّتُ :

أقدرُ أن أثبتَ هذا النهارَ أو أنفيَه،

لا بمعجزةٍ

لا ببينبوعٍ أخرسَ

بل قرآنُ خنثى أوشكتْ

أو قبرُ حبلى قوّضتْه الدموعُ

(كلّما طاف روحُ الحجر الساهر في حلم البنّائين

فتح الإسكندرُ عينَه على خزائني

وأغمضها عليَّ)

أقدرُ أن ألِدَ ولا أتدنّسَ

كما لو أني ومعناي مريمانِ تهتزّانِ في فراغِ النخلةِ،

أقدرُ أن أتقدّمَ كطفلٍ مؤبّدٍ جريحٍ ومعافىً على صفحةِ الماء،

كالنُدبةِ في رداءِ الملاكِ... أتقدّمُ

بأسمالي النورانيّةِ يرتّقها الطاعونُ .. أتقدّمُ

وحيثُ أنا القنديلُ يتلعثمُ في طيّةِ الفردوسِ

حيثُ ترتعشُ القبضاتُ المُحْكَمَةُ على كتفي – كتفِ اليتيمِ

أبذرُ أصابعي في غيابِهم المهيمنِ

وأنتظرُ الحصادَ .

(كلّما ابيضّتْ روحُ سقراطَ

تهدّمتْ سنابلُ الجدلِ

تحتَ جبيني).

وها أنا في الخاتمةِ

نارٌ عمياءُ تحرسُ أبوّتها من التلفِ

أو حجرٌ محرَّفٌ في لسانِ البنّائينَ،

أو

سقراطُ وهو يرفعُ كأسَ السمِّ

كانتْ خزائنُ الإسكندرِ تنضجُ تحتَ ثيابِه،

وكالمجنونِ

كالذبيحةِ على مورد الماءِ

انبعثتْ منه رائحةُ الجدل .

لهبٌ

موزونٌ

تَدافعَ

في

عنقودِ

عنبٍ :

سقطتْ

قطرةُ

خمرٍ

في

دمي .

كنتُ البئرَ عطّلتها ملائكةُ العطشِ

صرتُ غابةَ أبواق ساهرةً بانتظارِ الريح

وبلا أدلّةٍ جادلتُ عن هذه المومياءِ

عن أسمالنا النورانيّةِ لوّحتها شموسُ الأبد،

عن أقفاصنا الدفينةِ

مستسلمةً لرائحةِ نسورٍ

تتساقطُ في الآفاق .

كنتُ لا البيت

لا القفلَ في بابِ البيتِ

بل الأبَ مضرجّاً بأحابيلهِ يهبطُ السلالمَ :

اصعدي، شيخوخةُ، وتوّسلي بالساعات،

اهبطي، متاهةُ، ودلّي على نفسِكِ التائهينَ،

اصعدي بمُضغةِ المنفى تحتَ لسانِكِ الثقيلِ،

واهبطي بالفخاخِ متأتأةً .

يا لبلاغةِ الأضرحة .

قبرُ سقراطَ في الينبوعِ المسموم

كأسٌ يغترف منها المجادلونَ .

وحيثُ البلادُ العميقةُ كارتعاشةِ القوس أنتتْ،

سهمٌ مسدّدٌ إليَّ من الأمسِ لا يخطئُ ولا يصيب .

لنكنْ في الخاتمة

لنكن البرجَ مائلاً إلى ذكراه،

حبّةَ الحنطةِ في مداولات الرهبانِ،

أو النارَ اللعوبَ في طيّةِ الفردوس،

لنكنْ أيَّ شيءٍ

سوى هذا الجدلِ :

كلّما البحرُ

كلّما غريقٌ

يومضُ

وينطفئُ

في غيابِ السُفن .

فكُّ المربوط

بين الأقنعةِ والأقفالِ كمْ من حكمةٍ مطليةٍ بالقارِ ورملٍ يخالطُ القرآنَ؟

بين الأقنعةِ والأقفالِ كم من عذراء تائهةٍ في حقولِ السوسنِ،
والهواءُ، بضميرهِ المستترِ، يلقّنها الجادةَ والقنديلَ؟

كم الأنثى الكسيرةُ تلملمُ بقايا الأربابِ في كيسٍ أسودَ
وتخرج إلى عرسِها مدهونةً برائحةِ الجُماعِ،
بدورةِ البدرِ البارِدِ في طيّاتها الحارةِ:

أنثى ملفّقةٌ من حبةِ مسكٍ مُدافةٍ بكربلاءَ سحيقةٍ
ملفوفةٌ بخرقةٍ خضراءَ نفخَ عليها ألفُ فمٍ أدردَ
ودسّتْها يدٌ بيضاءُ في سريري، بين الأقنعةِ والأقفال .

لماذا الأقنعة؟

لتلتبسَ عليّ الوجوهُ فلا أعرفُ هل أنا من يطرقُ عليَّ البابَ يائساً ليدخلَ، أم أنا من يتجمهرُ في آخرِ الغرفةِ خائفاً كأنه لا أحد .

والأقفال؟

لعلّها إشارةٌ إلى استحالةِ أن يلجَ شيءٌ مني في شيءٍ منها مادمنا، أنا وإياها، نتقاذفُ بالتمائمِ، بالزايرجةِ والأوفاق، بعظامِ الهدهد وبذيلِ الشيطانِ مرسوماً في كسرةِ خبزٍ على مائدةِ الزفاف.

تيـه

وحدهم التائهونَ يدلّوننا

أولئك الذين أضاعوا الدليلَ سيأخذونَ بأيدينا ويهدوننا إلى ما لا نطيقُ،

وكم ودَدْنا، نحنُ الذين نعرفُ جيداً أين نحنُ، أنْ ندركَ أين همْ،

ودَدنا أن نكونَ معهم ومثلهم فلا نعودُ نعرف اسماً ولا رسماً لما نحنُ فيه.

في الليلِ لا يلتمعُ سراجٌ ينيرُ لهم طُرقَ المتاهةِ، والنجمُ في سَمتِ السماءِ فخُّهم المضيءُ،

رغبنا دوماً أن نكونَ منهمْ فلا يطّلعَ علينا أحد، لكنْ هيهاتِ، رغبتُنا ذاتُها حاضرةٌ ومقيمةٌ وبلا أدنى غيابٍ لأنها تعرف طريقها جيداً وتخلق حتى في عشقِنا للتيهِ جمهرةَ مشاهدينَ مقيمينَ يطلّون علينا من هناك، من الحضور الأكيد، ليرونا ونحن نتخبّطُ تائهينَ في ما لا نعرفُ وبلا أملٍ ....

لا

ليس هذا هو التيهُ

نحن أسرى أنانيةٍ حمقاءَ حين نطلبُ تيهاً مليئاً بالطمأنينةِ كهذا

لنعترفْ

لقد كبرنا،
أدركتْنا شيخوخةٌ مبكّرةٌ فلم يعدْ بمقدورنا أن نتيهَ .

في الفردوسِ، كما في الربعِ الخالي، ثمّةَ كثيرٌ من التائهينَ،

واحدٌ منهم فقطْ حطّمَ تيهَه بيديهِ حينَ استدلَّ على شجرةِ المعرفةِ

وجاءَ بنا إلى هنا ...

آدمُ، ابْقَ في تيهك الفردوسيِّ الكبيرِ وأنجُ بنا،

ماذا صنعتَ يا أبي؟

أنظرْ الى فَقر أبنائِكَ، إنهم يلفّقونَ متاهاتٍ صغيرةً ليضيعوا .

(أتيه فلا أدري من التيه منْ أنا

سوى ما يقول الناسُ عني وعن جنسي

أتيه على جنِّ البلاد وإنسها

فإن لم أجدْ شخصاً أتيه على نفسي).

يا للخذلان، صرنا نعرفُ الطرقَ كلَّها .

وأمسِ راودني الكابوسُ ذاتُه :

رأيتُ أني في وسط غابةٍ ممتدّة إلى ما لا يُحدُّ، حاولتُ أن أتيهَ وما استطعتُ،

كنت أغيبُ في العمق، في اللجّة الكثيفةِ، لكنهم دائماً يستدلّون عليَّ أو أقعُ أنا عليهم دون تدبّرٍ مني .

أخيراً

ابتساماتُهم الكابوسيةُ الماكرةُ أقنعتْني أني فقدتُ تلك القدرةَ المدهشةَ التي تجعلني أتوارى وأغيبُ ويسمّونني تائهاً.

تلك الغريزةُ الربانيّةُ ودّعتُها إلى الأبد .

استيقظتُ مغموماً وتذكرتُ كيف كنتُ في جنّةِ الطفولة أسرعَ التائهينَ،

كم ضعتُ بسببِ عباءتينِ أحداهما لأمّي، والأخرى لامرأةٍ تسحبني للفردوسِ في سوقٍ مكتظةٍ بعباءاتٍ سودٍ،

على عتبةِ البيتِ كنتُ أتيهُ،

وأنا أتطلّع لشِقِّ جدارٍ كنتُ أغيبُ وينادونني فلا أسمع،

بين النخلة وسطَ البيتِ والسلّمِ كنتُ لا أعرف أين

لوحدي أو مع الآخرين، لا شيءَ كان بمقدورِهِ أن يهديَني

أمّا الآن

فالعالمُ كلُّه يشيرُ لي بيديهِ

إلا أنتم .

أين أياديكم الكريمةُ الغائبةُ لتأخذَني معكم أيها التائهون؟

العينُ بالعين

إلى بن لادن وبوش معاً

بهمسٍ أنشبُ أظفاري في وجهكَ

بهمسٍ تنشبُ أظفارَكَ في وجهي

الأصابعُ العبوسُ في يدِ الحكمةِ ابتلّتْ بسوادِ عينينِ مفقوءتينِ

وتذابحنا بهمسٍ

لئلا نوقظَ العالمَ.

سبتمبر العار

قارئُ كفٍّ

خذْ طائراً من عنقي وقدْني إلى أسمالِكَ

إلى يديكَ المدهونتينِ بأنقاضِ الجهاتِ الأربعِ،

وأحملْني في قلبك الذي يرقّقه الرعبُ

أسودَ على أبيضَ

غراباً على الثلجِ

أو ساعةً في يدِ مجنون .

خذْ الريحَ العميقةَ التي لامستْ كتفيَّ،

خذْ وحدانيةَ الينبوعِ في لساني المتأتئِ،

وسرْ بي إلى هواءٍ أعمى

يفتحُ عينيهِ على بغداد .

ضعْ على شرشفِ أرقي

تضاريسَ جراحِكَ التي – من أزلٍ – تحفرُ

في نومها تمثالاً لمسافرينِ

وحقيبةً ليستْ لأحدٍ .

وإذا أخذتَ خطوطَ يدي اليسرى

وقرأتَ في عويلها مئذنتي تذبلُ وأهواري تجفُّ

وقرأتَ الأبَ يقطعُ صلاته ليشيّع ابنَه

أو الابنَ يحثو الترابَ على صلاة أبيهِ

فاعلمْ أنك بوقٌ مدنّسٌ في فمِ المعنى

وأنا دليلُك إلى العدم .

وقلْ عني بعد ذلك ما شئتَ :

أنا الأيقونة تنحلّ فيها الظلمةُ إلى شموسِها العمياءِ

أنا السماءُ الخفيضةُ تمسحُ بالرعدِ السامّ رؤوسَ المنهزمينَ

والجيشُ، بمخالبَ بيضاءَ، يحتضنُ الفراغَ

ويقولُ له: يا أخي .

ثمّ قلْ عنك أنك حديقةٌ مكذوبةٌ تتفرّسُ بالصحراء .

مصباح مثقوبٌ في أعلى السرير

حيثُ المعجزةُ عناقُ مخمورينِ في فجرٍ يصحو .

وسأسمعُكَ

شاسعاً ومندثراً سأنصتُ لحفيفِ أسمالِكَ

توقظُ آلهةً خضراءَ حيرى في أقفاصها

أترقّبُ التماعةَ عينيكَ

توزّعُ أطفالها البكّائينَ على

مدارسَ مغسولةٍ باللهبِ .

وأريكَ – ولو من بعيدٍ – أمّاً طفلةً

في أوّلِ البلوغِ تتعرّى

ونهدُها، مثل ياقوتةٍ لم تختنْ بعدُ

يذوبُ في ماءِ القبلات .

أريك – ولو من بعيدٍ – كيف يُدارُ الربيعُ

بملاعقَ من فضّةٍ في فمِ أحمدَ

وكيف البيتُ، كالبيتِ، يكشفُ عن جرحهِ المهيمنِ،

والهواءُ يضمّدُه بالهواء .

هذه القصيدةُ مكتوبةٌ لي وحدي

كما يكتبُ صيادٌ توبتَه على جلدِ غزالٍ .

صباحاً، عثرتُ على درهمٍ طينيّ جففتْهُ أجنحةُ الحمائمِ،

ظهراً، آثارُ مخالبَ على زجاجِ المقهى،

مساءً، في استكانِ الشايِ رائحةُ بغداد

رائحةُ هاربٍ من الخدمةِ العسكرية .

بقليلٍ من التحريفِ أرتّبُ أوثانك الحرّةَ

وأخاطبُك كمهرّجٍ معصومٍ :

أنا – أو مَنْ هو في حُكمي – عذراءُ

تغسلُ شرشفَها بدمٍ أبيضَ،

شابٌّ هزيلٌ يعبرُ الحدودَ

ويلتفتُ

فلا يجدُ سوى هاويةٍ تتنفّسُ فيها الأمهاتُ .

أنا – بقليلٍ من التحريفِ – دميةٌ تتلوّى

في غارِ حراء،

عكازةٌ تجرجرُ طفلاً إلى معناه،

وموزونٌ عدمي، عدمي موزونٌ

وفيَّ، في مربعِ الضبابِ الذي يؤطّر قلبي،

ثمة الرعدُ موزوناً يصفّقُ لجسورٍ

تنقَضُّ في لهاثٍ موزونٍ .

وثمة أنا – أو مَنْ هو في حكمي – ريفٌ نائمٌ يعبرُ المدينةَ :

وطأْنا أيامنا الأجنبيّةَ بأحذيةِ آبائنا

شمَمْنا في سوقِ السرايِ كتباً ممحوّةً

وعرفنا أننا مندثرون .

صباحاً، سيدوري تعضدُ عتادَ رعبِكَ أيها المُطْمَئِنُّ

ظهراً، أنكيدو يحرسُ قيلولةَ الندمِ في ظهيرتِكَ أيها المحاربُ

مساءً، كلكامشُ يخصّبُ طاعونَكَ أيها المعافى .

هذه القصيدةُ مكتوبةٌ لكَ وحدَك .

وغداً تأخذُك رعدةٌ في برجِ الميزان

أمامَ دكاكينَ منهوبةٍ

أمامَ بائعٍ متجوّلٍ

تتكسّرُ على ركبتيكَ عصيُّ الألوانِ

فتختلفُ عليك الجموعُ

العبدُ بسلاسلهِ

والملائكةُ بصهيلها المرّ،

غداً

تعودُ إلى سيرتك الأولى

أسودَ على أبيضَ،

غراباً على الثلجِ

أو ساعةً في يدِ مجنون .

1995

جنّةُ عدم

إنْ تكنْ جيوشٌ تكنِ الموازينُ مترفةً ومنسيةً كحدائقَ أنضجها القحطُ على مَهلٍ ،

والحكمةُ – هذه الكنوزُ السوداءُ في فمِ الذئب – تلجئُكَ إلى قرينٍ حيٍّ
يرفعُ حديدَه الصدئَ عالياً

تحيّةً للعدم .

إن تكن الحربُ

تكن بغدادُ تنقّر جثّةَ بابل، أو بالعكس

زقورةٌ تتهدّم في كتاب "أبي مخنف"،

فردوسٌ كالطعناتِ المرحةِ في أحشاءِ النائمِ

عادلاً يضحكُ على العراقِ،

عادلاً يضحكُ على صبيانٍ ممتحنينَ بشرطيٍّ سكرانَ :

أختامُه المزوّرةُ في معطفهِ،

ويداه مغلولتانِ على دراهمَ مسكوكةٍ من لهاثٍ وزمهريرٍ .

ويا للنياشينِ المشعّةِ على صدرهِ المنكوبِ،

يا لقبّعةِ الريشِ، مثقوبةً تتدارَكُ الصاعقةَ برأسٍ مبتور،

يا لأنواطِ شجاعتهِ تتدلّى كمفاتيحِ الصيرفيّ،

كالذبائحِ التي تقلّبُها الشمسُ :

نعمْ نعمْ ولا لا

ويا للركلةِ المطبوعةِ على وجههِ – وجهِ الملاك –

يا للطائراتِ الكسولةِ ترمي نردَها في الصحراء ِ

فتأكلُنا النعمةُ ونتعافى .

تأكلنا النعمةُ لأنّ وجوهَنا تتفسّخُ من طعنةِ الفزع التي تشفي،

ونتعافى لأن أحشاءَنا أُترعتْ بسموم "المارينز"،

تأكلنا النعمةُ ونتعافى لأنّ كلباً أجربَ حكَّ جلدَه بأعمارِنا واختفى .

إن تكنِ الحربُ يكنْ أخونا البابليُّ قاعداً في الظلّ يحلّ الضماداتِ عن قلبهِ، ويلهو بطنين الذبابِ، بالقياماتِ المدفونةِ هنا وهناك، بالأبديةِ المرتجلَة، بشكيمةِ الأنثى تغسلُ ثيابَ غوغاءٍ يسهرونَ على أكياسِ الطحين .

إن تكنْ الحقيقةُ مترَعةً بالدماءِ الثلاثةِ – دماءِ الحيضِ والاستحاضةِ والنُفاسِ – يكنِ اليقينُ بارداً كالنارِ المرسومةِ في بيتِ النساءِ، كالفقيرِ الباكيْ على نجمةِ الصباحِ، كالأصنامِ الصغيرةِ في لفظةِ اللهِ، أو كالذي يُقالُ له: مَنْ أنتَ؟ فترتجف يداه من الحمّى .

وأنتَ

أخي أيها المنتصبُ على الفردوسِ بفداحة الفجرِ التالفِ وصريرِ الأسنانِ،

يا من يمزّقُ دفاترَ الإخباريين بحثاً عن كُنيةٍ تليقُ ببياضِ أكتافهِ،

شمسُ ماءٍ تفجّرتْ في ثيابِكَ؟

أمْ هي الحربُ، وأعداؤك أطفالٌ يقايضونَكَ بزئيرِ الذهبِ،
بالنبوءاتِ الرخيمةِ كقواربَ مربوطةٍ إلى أكوامِ الكُتبِ؟

أعداؤك – أخوتُك طهاةُ الأيامِ يلتمسونَ الأبوابَ إلى قلاقلَ يائسةٍ تنعش الأنثى التي فيكَ، الأنثى التي ترتجُّ في أحشائك، الأنثى التي هي أنتَ لولا براهينُها وشكُّك، لولا القرائنُ التامّةُ للغيبِ المدوَّنِ بالركلاتِ .

ألهذا

أخي أيها المشرف على أقنعة الغد وخرائبه .

تقفزُ من عاصفةٍ لا تعرفك إلى عاصفةٍ لا تعرفُها؟

ألهذا تحلُّ الضماداتِ عن قلبِكَ،

ومعك الربيعُ الأخرسُ يربّتُ بيدين سوداوينِ على حديدِكَ الذي لن ينجوَ منه أحد؟

ألهذا بغدادُك تنقّر جثةَ بابلك

أو..... بالعكس

بابلُك مقفلةٌ

ومفتاحُها في فمِك .

ساحةُ الأندلس

إنني أتناقضُ

برهاني يقودني إلى العطب

بالأمسِ

حين رفعتُ الغطاءَ عن تابوتِ أخي

رأيتُ الابديةَ: رزمةَ أوراقٍ نقديّةٍ على وجهٍ محترق .

–هل رأيتَ الابديّة؟

–رأيتُ قارباً مكذوباً عليه في العاصفة

رأيتُ ناراً منسيّة تتأجّجُ على حافّة الفجرِ

–هل رأيتَ الأبَ ومعناه يتقاتلان في صلاةٍ لم تكنْ لأحد؟

–هل رأيتَ الأمَّ

عباءةً تردحُ منذ الفجرِ على دمٍ أشقرَ يتصببُ على العتبة؟

هل رأيتَني حارساً على صناديق الأسلحة ولا أدري لماذا؟

هل رأيتَ كوثرَ

تسفحُ عقائدها على ماكنة الخياطة

وتتبعثر لتشدَّ حجابها؟

هل رأيتَ عبد الرحيم

ينبوعاً أسودَ يترقرقُ في قرآن أبيضَ؟

هذا هو برهاننا الذي قادنا إلى العطب

هذه غيبتُنا الكبرى التي اختلفنا على تأويل عظامها .

هذه هي الأبديّة :

نتكدّس في رقعةٍ خرساءَ ونتحدثُ عن القيامة،

عن حدائقَ مضبّبةٍ تشقّ طريقها في زينة المآتم،

عن الفم الذي يتشرّد ليقول :

أنا .

أنا السهمُ المثلّثُ الذي أخطأنا جميعاّ واستقرَّ في أحشائكَ

أنا الخاتمُ الذي انفرطَ من خنصرك الهزيلِ

أنا شمعدانٌ يجادل عن قوّة الظلام فيكَ،

في ثقوبكَ الكثيرة،

ولا أحد، تحت هذا الكوكب المترنّح، سيسمّيكَ

عارياً ومحتجباً، كأنْ جوقةُ مجانينَ ينتحبون في ثيابك المسلوبةِ،

كأنما نكهةُ الفجرِ استوقفتك

وألقتْ في يديك المأكولتينِ دراهمها المصكوكةَ من لهاثٍ وزمهرير،

فلتصمتْ إذاً،

ولتفتحْ أبواقك الصخّابةُ نفيرَها في الظلّ،

حيث الرياحُ الباطلةُ تقلّب الوجوهَ الباطلةَ

مثل قنديلٍ باطلٍ يضيءُ وجدانَ الأعمى،

أو

مثل شهوةٍ نظفر بها في كتابٍ ممزّق

ونقشعرّ لها أبدَ الآبدين .

غير انك الاسمُ ونقيضُه الذي يبشّر بالجسد النظيفِ المقموع

أنت المعجزةُ وتدابيرُ المعجزة :

فمٌ محشوّ بأوراقٍ نقدية .

أنت القفلُ في باب أبي يحرّف معناي :

حين كان الشمرُ بن ذي الجوشن

باسطاً يديه من الكوى، يصفّق للتوّابينَ،

كان أبي منشغلاً بيديه

كيف تتناوبانِ الضحكَ والبكاءَ على بابلَ وأسباطٍ يتفسّخونَ في الكُتب .

وباسمي

باسم طبائعَ شاقّةٍ

تراجعتْ حكمتي،

وانتهيتُ الى برهانٍ مريضٍ وبلاغةٍ تتقشّر،

وها أنا أتناقضُ

ها أنا أتقدّم اليكم مثل قاربٍ مكذوب عليه في العاصفة

ها هو لساني يجرجرُ وساوسه :

العشائرُ شعثاءَ تتصارعُ على حبّة شعيرٍ، ما اسمُها؟

الغيبةُ الكبرى التي اختلفنا على تأويلِ عظامها، ما اسمها؟

وما اسمُ الحدائقِ التي من أجلِ خلاصي وخلاصكَ تتزيّنُ بالرُعب؟

ما اسمُ اليمامةِ التي تحفظ لي عينيَّ إلى أن يحينَ بلوغي،

الى أن تطربني الأباطيلُ

وأُدفَنُ مع أسمائي

فلا يطّلعَ عليَّ أحد؟

باسمي

باسم نظامٍ آخرَ للكونِ

باسم برقٍ فقيرٍ يذرذرُ مواعظَه على النائمينَ

حاولتُ أن أنقطعَ الى تأريخٍ نهائيٍّ يوجزُني

أن أستجمعَ حياتي كلَّها في مشهدٍ وحيدٍ

حاولتُ ولم ألتقطْ غيرَ معنىً أليفٍ :

شرطيّ غامض يتثاءبُ في ساحة الأندلس .

هل أقولُ له: برهاني قادني إليك؟

هل أسألُه: أهذه هي أوروكُ؟

أهذه هي البقرةُ التي ترعى جادّةَ السماءِ؟

أهذا هو القنديلُ الخاشعُ السكرانُ

الذي أنعشَ قلبَ سقراطَ وأنّتْ عليه أحشاءُ الإسكندر؟

أهذه هي الأبديّةُ :

حفنةُ أوراقٍ نقديّةٍ في فمٍ محترق؟

لنبتهلْ

لنرفع الغطاءَ عن وجوهنا

ثم نلهث راكضين كلّاً الى صحرائه

كلاً الى ينبوعهِ المتعفّن

لنبتهلْ

لكنْ لنحيّي أولاً هذه الكآبةَ – بهجتنا التي هيأتْ عظامنا للهزيمة،

. لنتذكرْ

. لننسَ

. لننسَ ولنتذكرْ

لنباركْ هذا الرأسَ المرفوعَ من الزنزانةِ

مطالباً بحريّة التناقض :

أنا أتناقضُ

برهاني قادني إلى العطب

وهذه القصيدةُ أيضاً تحملُ تناقضها في أحشائها

لأنها هي والعدمُ تُسقى من ماءٍ واحد .

*ساحة الأندلس ساحة معروفة في قلب بغداد، فيها مقر اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين ومقر الأمن العام .

1995

بابل مقلوبة

1

أضعُ بداهاتي قدّامكَ الى أن يسكنَ الرعدُ
الى أن ترفعَ البوقَ من فمكَ وتصرخ في الشعب:
أما قرأتم قطُ في الكتب؟
أما رأيتم الغريبَ مربوطاً بالذهبِ الى خيامِ آبائكم
فسلطتم عليه الكتبةَ ليرتعدَ؟
إكتنفتم يديه بجيوشٍ ومجانيقَ
صيرتم أكتافه مأكلاً للضبابِ
وكلما استيقظ من نومه وفركَ عينيه
رعاةٌ نوامونَ منكم أعادوا عليه النعاسَ

فالآنَ أقولُ لكم :

قبّلوا هذا الطفلَ النائم لئلا يغضب
قبلوه لئلا يحلَّ الظلامُ .

وأكاد أتكلمُ لولا لساني
أكادُ في ظلّ أسيادكِ المقموعينَ أوثقكِ
وأسقيكِ من المنفى الذي أسقيتِني إياهُ
ياخاشعةُ
ياسكرانة
يابيتاً يطرده الأخ الأكبرُ بلا حقائبَ
يا بابلَ أُوحيَ اليها أنْ تمخّضي وإلا نفضتكِ
تمخّضي لأنكِ الجيشُ المنهزمُ
بوق بعثركِ وطافَ بكِ في البلدانِ
شرطيٌّ يشتكي العطشَ أماتكِ وأحياكِ
ثم أماتكِ وأحياكِ
ثم أماتكِ وأحياكِ الى أن حبلتِ وأنتِ العذراءُ
استيقظ أبناؤكِ وتاهوا
وتهشمتْ أسنانُهم من الضحك .

ومالي لا أضحكُ؟

أضحكُ لهذه الصنائعِ الشاقّة:
أضحك لنافخِ البوقِ تحتَ خرائبِ بابلَ،
أضحكُ للغيم الأبيضِ يتوّجُ قلبَ ميديا بلا سبب،
أضحك لصبيةٍ لم يقلْ لهم أحدٌ أنهم شيعةٌ لكنهم تنبأوا بذلك،
أضحكُ لمعدان يحرثون أكتافَ نسائهم حزناً على ثأرٍ لم يبلغوه،
أضحكُ لمندائيينَ يخرجون من خيمة الإجتماعِ وعلى أيديهم دمٌ لا يعرفون لمَنْ،
أضحكُ لانكشاريةٍ يربطون خيولهم إلى رأسِ الملكِ كوديا،
أضحكُ لكلدان لم يجدوا ما يتصدقون به، ملأوا آبارهم خلاً وتفرّقوا في الأقطار،
أضحكُ لعشائرَ أوقفتها خطيئتُها في ظلِّ شرطيٍ يتثائبُ،
أضحكُ على ناصر الأشقر
على قلائده المصكوكة من أسنان العبيد،
أضحكُ
وأعرف أن شعباً أحدبَ سوف يتسلّلُ اليَّ
في هذه الساعةِ
ليشاركني البكاء .

الكروبيون

أعمى يغمسُ عصاه في الذهبِ ويتألّمُ:

اعتقادي أن ربّكَ البهلوانَ يسدّدُ اصطرلاباتِه إلى وجداني

ويخصّني باللطائفِ كلِّها :

حيواناتٍ مسختْها الأقاويلُ،

ومصاحفَ تشتهي جوقةً ترتّلُها بحزنٍ على النائمينَ

(صمت)

اعتقادي أنّ العقلَ، مثل ثمرةٍ باردةٍ، يخوضُ فيك لئلا يصلَ إليكَ

وأنك مزجتَ سماعي بسماعِ العوامّ

فتشابهتْ عليك العقول.....

(صمت)

غير أنّ هؤلاء الملاحدةَ رُزِقوا من الرعب بحيثُ أنّ منهم من يصعدُ إلى غرفة أبيه
ليرى طاعته وعصيانه تتناوبانِ الضحكَ على كومةِ عظامٍ
تتلو وصيتها الأخيرةَ
ثمّ يهبطُ مبللاً وكلّه عيونٌ تبكي بعد فواتِ الأوانِ على أخٍ يغمسُ عصاه في الذهب ويتألم
وأختٍ وقفَ بها التمكينُ وراء ماكنة الخياطةِ ربيعاً ينقبضُ وينبسطُ تحت الأقنعة ....

(صمت)

وإلا فاعتقادي أنك تطالعُ الجنديَّ الهاربَ يطمرُ أسلحتَه في أحشائه بالعينِ ذاتِها، عين الخنثى، التي تطالعُ بها عذراء تنعكس في المرآة أماً وترتدُّ عليك مزقاً ...

(صمت)

لا ...

لا لأنك البركانُ الوقورُ يدفنُ وجهَه في ظلامِ العشبِ بانتظارِ أن يحبَّه أحدٌ،

ولا لأنّ وجهك شمعدانٌ مسروقٌ يترقرقُ تحت جبينِ النائم،

بل لأنّ فيك ما يُدرَكُ وما لا يُدرك

فمن جهةٍ :

حيواناتُك تتدافعُ في ممرٍّ ضيقٍ مسختْها الأقاويلُ

مصاحفُك أُنزِلتْ بحزنٍ ولا أحدَ يقرأها بحزن،

ومن جهةٍ أخرى:

(صمت)

حتى متى اصطرلابُك مسدّدٌ إلى دمي؟

حتى متى فرجالك يقيسُ دورانَ الفراشة في محيطها الأسودِ

قارعةً بمخالبَ من عسلٍ وحمّى هذه الغنيمةَ المشعشعةَ،

زجاجةَ المصباحِ المكسورةَ

حتى متى يخلطني الفجرُ بنقوشه

والملائكةُ بأنينها العذبِ

(صمت)

نعم

هذه بئرُ العطش يتدافع عليها الكروبيون ولا أحد يشرب،

هذا فرجالك يقيسُ ضجّةَ العالم،

والعقلُ

مثل ثمرةٍ باردةٍ متروكة الى الفجر،

يلتمسُ له محنةً تعيدهُ إلى ديمومتهِ،

العقلُ....

(صمت)

قنديلٌ يدفنُ قوّته في قوّة الحائط

وينهدمانِ معاً

(صمت أبدي)

قتيلانِ يتحاوران

. هذه خرافةٌ، تنجيمٌ أو لعبٌ بالاوفاق

. لماذا؟

. لأنّ السفينةَ لاشيءَ إنْ لم تكنْ ريحُها منها..

. كذلك أنا في بيت المعنى عقيقٌ زائفٌ لولا أنْ صدّقتُ نفسي.

. ولكنها مع ذلك خرافةٌ، تنجيمٌ، محضُ استرسالٍ في التيه كمن يبسطُ يداً اصطناعيةً أمامَ قارئ كفٍّ، وإلا مَن أين لك أن ترى الكنزَ الوقورَ في ابتسامةِ الجنديّ الخائفِ، بل كيفَ لي أن أقيم الدليلَ على بلاغةِ حاجبيك وهما يعذّبان المكانَ..؟

. لا، .. ليس عندي هنا بين الأنقاضِ سوى قوّتي،
قوّة المنجّم يتخاطرُ تحت قوس زحلٍ رادّاً التحيّةَ على قتلاه

. الليلةَ اقترانُ نجومِ العقيدِ بكوكبةِ ذاتِ النطاق

. لمثل هذه الليلةِ ادّخرتُ لُباناً ذَكَراً، زهرةَ دفلى حمراء وصناديقَ أسلحة.. وأنت، ماذا ادّخرتَ ليوم زفافك، يا من تدفن وجهكَ في أطلس البروج بانتظار أنْ تتذكرَ اسمَك؟

. .. ما اسمُكَ؟

. لا شيء. أريدُ أن أقبّلَ جرحك المفتوحَ للصيف.. وأنتَ ما اسمُكَ؟

. أريد أن أشكرَ الضبابَ الذي يرفو الثقوبَ في خوذةٍ تتقلّبُ على السفح..

. لعلّها خوذتك

. انها حقّاً خرافةٌ

(يقف الانسانُ مقطَّعَ الأوصالِ في شفيرِ الفجر، على حافّة خندق في "سانوبا"*، يقفُ ليملأ منخريه برائحة الدم، ثمّ وقبل أن يتهالكَ، تؤاتيه شفقةٌ مضحكةٌ، شفقةٌ تتلّخص بإنقاذ الانسانِ من شفقته)

. ما هذه الخرافة؟

. انها الاسمُ الريفيّ الذي أعطوه للموت

. بل هي الثلجُ المتقلّب في نعمةِ النار، ويحرقُ طالبيه .

سانوبا: منطقة حدودية سقط فيها آلاف من الشبان العراقيين والايرانيين .

8 شباط

كتبتُ الى الزعيمِ: رأسُ مَنْ أسمعه يُطحنُ بمطرقةٍ؟

وفي لياليَّ وأيامي أنينُ معدانٍ يتنازعونَ كأسَ السمِّ وراءَ القصب .

كتبتُ اليه :

أخي

إن البدوَ الذين وكلتَهم على منابعِ الفراتِ أثقلوها سمّاً

ان عمالك خلطوا بريدك ببريد العصاةِ

وان عقربينِ كبيرينِ تحتَ جلدك يلتهمانِ الليلَ والنهار .

ولما أنْ وصلَ بريدي، كان رأسُ الزعيمِ أخي يُطحنُ بمطرقةٍ،

وكانَ

جيشٌ جبانٌ وراءَ القصب يفتكُ بالمعدان .

آخرُ العرب

تحتَ شمسِ الشموس،

في قيظِ الحكمةِ ومجدِ العطشِ

لساني أرادَ أن يجلوَ صدأً قديماً تراكمَ على اسمِ العراق .

والعراقُ كلمةٌ لا أقولها .

يقولُها شابٌّ مندائيٌّ تناوبَ ماءانِ على شفائهِ من الصرع .

يقولها كلدانيٌّ أشقرُ

ريشُ وسادتهِ من أجنحةِ ملاكٍ فقير .

كلمةٌ تليقُ بكرديّةٍ مسفوحةٍ في ظلامِ الكهف

وقنديلُها طاهر .

لكني إذْ قلتُها وانعقدَ طلسمُها في فمي

فلأني بالأعلاقِ الدمويّة ورثتُ هواءً كثيراً عنهم

وتنسمّتُ شميمَ صواعقهم المخلوطةِ بآهةِ الآدميّ وعريهِ الضاري .

ورثتُ غبطةً كوكبيةً في هشيم فخارهم

ورعباً

في ولائم الطينِ المتروكةِ هنا

تحت شمسِ الشموس .

وكان ذلك في القديمِ القديم

قبل أن يأتي أولُ الأعرابِ

قبل أن يحرقَ خيمته ويعقرَ حصانه،

حصانَه

المكرَّ

المفرَّ

المقبلَ

المدبرَ

في قيظِ الحكمةِ ومجدِ العطش .

أسدُ بابل

- 1 -

تهتكْ

بالذي يمتشقُ سيفَ العذوبة الأسودِ ويزلزلُ المغيبَ،

تهتكْ

بالساهر يذرذرُ على النائمين أحزانه القويّةَ كالشمس،

تهتكْ

بأسدِ الرخام يوشكُ أن يتعافى،

تهتك

بالجيشِ يتداوله طائرانِ بكّاءان،

تهتك

بالحكومةِ وقعتْ عليها القرعةَ فسلكتْ بنا تصانيفها العاريةَ،

تهتكْ واكرعْ مع القطيعِ الذهبيّ من البُرْكة إيّاها،

تهتك وقلْ للقيامة :

مرحى

أنا غير ذي ثقةٍ

وحسبي من الفردوس كلابُ الفردوس

حسبي من الدسائس نومةُ الأبِ في الظلِّ المكتوم

بعيداً

مع ملائكةٍ يتهتكون .

سأدلّك على بابلَ

سأرشدُك إلى جحيمٍ لن تراه بعدُ في الكُتبِ

سأريك معتقداتِ اليأسِ ومذاهبَ الأنينِ

وأنا وإياك سوف نحتكمُ إلى حدائقَ تتأجّجُ في المنعطفِ القادمِ

حيثُ ملاكٌ مستأجرٌ يسهرُ على نكبتِه،

نكبةِ الماءِ اليتيمِ

يرفعُه شريكٌ ممسوسٌ إلى جنائنَ معلّقةٍ حوصرتْ

ويشفقُ عليها الرمادُ .

وهناك

على السريرِ الذي تفجّرتْ فيه أعينُ النحّاتين،

سأستلقي مديداً

وأحصي عليك جيوشَك التي – على صوابٍ –

تمعنُ في أخطائها .

و دونك الحجر،

دونك مساكبَ الحمّى،

دونك معاولَ النهارِ

توقظُ الخسارةَ في الظلال القويّة

لصرخةِ الأسد .

1994

كربلاءُ الوقت

كلما استجمعتُ رعبَ قلبي وقلتُ بالحاضرِالدافقِ أَجْلُوْهُ، بالينبوعِ الذي وُلدَ اللحظةَ معي، رأيتُ اني جئتُ من قبلُ أو من بعدُ وانْ لاوقتَ لي يصلحُ أنْ أسميه الآن .

فالآنَ فواتُ أوانٍ .

واذ تهيّأتُ وتعبّأتُ وقامتْ قيامتي ألقيَ في روعي أني من الأمسِ، من الديمومةِ التي غُسِلَتْ حتى صارتْ مِزَقاً .

من القديم أتيتُ، وفي القديمِ باشرتُ زمناً كنتُ أظنّه الآنَ فإذا هو منقلبُ الوقتِ ويأسُ الحاضرِ من نفسهِ، وعجزُه عن أنْ يكونَ .

أنا في فواتِ الأوانِ

أو لأقلْ أنا في بُهتانِ الأبدِ، صدقتُ ما لم يعدْني به أحدٌ، صدّقتُ أنْ سيأتي الوقتُ وأجيء معه، ويصحّ لي حينَها أن أقولَ أنا، دون أن يهجرني حاضرٌ أو يمكرَ بي أوانٌ ...

لكنّي ممكورٌ بي .

أليس ممكوراً به من يتداولُه طائرا تَلَفٍ وكلٌّ يدّعي أنه الوقتُ، وكلٌّ يخبطُ بأجنحته في ساعتي، ساعةَ المغيبِ، ساعةَ مللتُ من اللعبِ وأردتُ العودةَ إلى بيت أمّي، أرقّقُ رعبَ قلبي بمائها المهيمنِ، بالينبوعِ الفراتِ الذي ولدتُ أنا

وإياه في رَحِمٍ واحدٍ .

لكنّي مكذوبٌ عليَّ

أليس مكذوباً عليه من يصمتُ بين يديْ صديقٍ يحدّثه عن القرآن، ثمّ يلتفتُ فإذا الكلامُ قديمٌ والصديقُ انتهبتْه سيوفُ هواءٍ بعيدٍ، وقرآنُه مفتوحٌ من الامسِ على سورةٍ محرّفةٍ أوّلُها الآنَ وآخرُها فاتَ الأوانُ .

مهجورُ الحاضرِ أنا

أرملُ اللحظةِ

يتيمُ الأزمنةِ كلِّها

لي كربلاء، وكربلائي لا تنقضي بسهمٍ مثلّثٍ ونارٍ تأكلُ الخيامَ

كربلائي . الوقتُ، ماضيةٌ في حضورها وتتشبّه بالمستحيلِ

إنها كمثلِ ياقوتةِ اليأسِ تجدّد نفسها في كل آن .

في كلِّ آنٍ فواتُ أوان .